مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 1 السنة:2022
ص: 1160 - 1176 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

البعد التداولي في كتاب "آيات وأحاديث الأحكام لعبد الحميد بن باديس"

The Deliberative Dimension in the Book "Verses and Hadiths of Judgments by Abdul Hamid bin Badis"

محمد فارح*
Mohammed Farah
مخبر التراث والدراسات اللسانية
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)
Université Chadli Bendjedid El Tarf (Algeria)
farah-mohammed@univ-eltarf.dz

تاريخ الإرسال: 2021/06/28	تاريخ القبول: 2021/10/29	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

أضحت التداولية اليوم علما جديرا بالاهتمام، تسعى من خلال توظيف آلياتها لدراسة العلاقة بين العلامة ومستعمليها، وقد نشأت التداولية في تربة غربية ومن أصول فلسفية وسميائية ولسانية، وأصبحت نظرية لها قوامها العلمي والمنهجي، غير أن هذا الدرس لم يكن وليد البيئة الغربية فحسب، وإنما عرف العرب الأوائل ملامحه وتحدثوا عنها في مدوناتهم اللغوية والبلاغية والدينية.

وقد اهتم الإمام "ابن باديس" بالخطاب الأصولي من خلال جمعه لأحاديث وآيات الأحكام القائمة على عنصر الخطاب واستعماله، والمقام الذي تستند عليه هذه العناصر التي تعد ركائز أساسية في الدرس التداولي. ويروم هذا البحث رصد ملامح الدرس التداولي عند الإمام "ابن باديس" من خلال كتابه القيم "أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام من أمالي الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس".

الكلمات المفتاح: تداولية، تواصل، خطاب، تحليل خطاب.

Abstract :

Pragmatics Becomeinteresting science at moment, by hiring throughEmploying its mechanisms to study the relationship between the sign and its users,Pragmatics was Originatedin a Western environment of philosophical and semiotic linguistic origins, and it's havebecomebasic theory with a scientific and methodological rule, However, this lesson was not only a product of the Western environment enough, but it was known byThe early Arabs features and talked about it in their linguistic, rhetorical and religious blogs.

* محمد فارح: farah-mohammed@univ-eltarf.dz

AndImam "IbnBadis" was interested in the fundamentalist discourse through his collection of hadiths and the verses of rulings based on the discourse element and its use, and thiselements position in which these are based, which are principal pillars in the pragmatic lesson, This research aims to trackingthe features of the pragmatic lesson of Imam "IbnBadis" through his impact book "OusulAlfiqhAyatwa'ahadithAl'ahkamfrom'Amalii Professor Imam Abdul Hamid Bin Badis".
Keywords:pragmatic, communication, discourse, discourseanalysis.

مقدمة:

تعد التداولية تتويجا معرفيا للتطورات الحاصلة في الدرس اللساني الحديث، ظهرت بعد سقوط المدارس البنيوية، وجاءت لتتدارك ما أغفلته هذه المدارس في دراستها، ومن أهم هذه المسائل الاهتمام بالظروف المحيطة بالعملية التخاطبية، وبالسياق الاستعمالي للغة، وتسعى إلى مقاربة اللغة في شقها المنجز، ومعالجة كثير من المسائل التي تسهم في فهم هذا الخطاب.

ويعد كتاب "ابن باديس" أحد الكتب العمدة التي ألفت في أصول الفقه، فقد ألفه صاحبه وهو يقدم لطالب العلم جملة من آيات وأحاديث الأحكام في جميع أبواب الفقه. ولما كان فهم هذه الآيات والأحاديث يحتاج منهجا يتكئ على مبدأ الاستعمال وعلى نظرية السياق كان لابد من اعتماد المنهج التداولي للوقوف على القضايا التداولية المتضمنة في الكتاب.

ومن هنا جاءت هذه الورقة البحثية وهي تروم الإجابة عن الإشكالية أساسية: ما هي أهم القضايا التداولية التي تضمنها كتاب "أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام لابن باديس"؟ وكيف أسهمت الآليات التداولية في فهم الخطاب الأصولي؟

أولا–مفهوم التداولية:

1–التداولية لغة:

يعود هذا المصطلح إلى الجذر اللغوي الثلاثي (دول)، وقد ورد في عدة معاجم بمعنى الانتقال، والتحول. قال الزمخشري: "دول: دالت الدولة، ودالت بكذا، والله يداول الأيام بين الناس، مرة لهم ومرة عليهم، والدهر دُوَلٌ، وعقبٌ، ونوبٌ، وتدالوا الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه: يراوح بينهما"[1]؛ فالمداولة هي التعاقب، والمراوحة، والانتقال، والتحول، فالماشي ينتقل ويراوح بين قدميه؛ أي يداول بينهما، والكلام يتداوله المتخاطبون، أي يتناقلونه.

جاء في لسان العرب: "يقال تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه، فعمل هذا مرة وهذا مرة، واندال القوم: تحولوا من مكان إلى مكان"[2]، نلاحظ أن هذا التعريف لم يخرج عما ذكره "الزمخشري"، وتكتسي لفظة "التداول" معنى التبادل، والتحول، وقد تضمنت المشاركة في هذا، ويوحي معنى التحول والتبادل إلى وجود أطراف تتشارك فيه، وهذا ما نجده في العملية التخاطبية، بوقوع التبادل والتحول في هذه العملية.

2-التداولية اصطلاحا:

نشأت التداولية من أفكار الفلاسفة الغربيين، وتأسست على مجموعة من الروافد المختلفة، جاءت من أجل استدراك ما وقعت فيه اللسانيات البنيوية من أخطاء، وركزت في بحثها على مجموع السياقات والظروف التي تحيط بالعملية التواصلية، فعدت بذلك فرعا من اللسانيات، فهي "مفهوم يستعمل اسما (التداولية) كما يستعمل صفة (مقاربة تداولية) وقيمته على عدم استقرار شديد، فهي تسمح في نفس الوقت بتعيين فن فرعي من اللسانيات، ونزعة ما في دراسة الخطاب، أو بصفة أوسع ما للغة"[3]؛ فالدرس التداولي لا يمتلك الرسوم البينية وذلك لغزارته، وتداخله بالعلوم الأخرى، ولكونه درسا جديدا في الساحة اللغوية واللسانية؛ فالتداولية "درس جديد، وغزير إلا أنه لا يمتلك حدودا واضحة"[4]، وتعد التداولية فرعا من فروع اللسانيات، ولكنها تعمل على دراسة اللغة من خلال الاستعمال في العملية التخاطبية وما يحيط بها من ظروف "إنها الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل"[5].

ثانيا-البعد التداولي في كتاب آيات وأحاديث الأحكام للعلامة بابن باديس:

يعد كتاب آيات وأحاديث الأحكام لـ "عبد الحميد بن باديس" من الكتب المميزة التي ألفت في أصول الفقه، قسمه المؤلف إلى مجموعة من الأبواب على عادة المؤلفين في هذا الفن، فجاء الكتاب وهو يحمل ستة أبواب كل باب ينضوي تحته مجموعة من المسائل، فبدأ كتابه رحمه الله بباب الطهارة وختمه بباب الحج، منتقلا فيما بينهما من الصلاة إلى الزكاة إلى الصيام، وأفرد للاعتكاف بابا مستقلا.

وسنحاول في هذا الجزء من البحث أن نقف على أهم الآليات التداولية التي تسهم في فهم الآيات والأحاديث التي ساقها الشيخ رحمه الله في كتابه، ومن أهم هذه القضايا ما يلي:

1-أفعال الكلام:

تعود فكرة أفعال الكلام إلى الفيلسوف "أوستن"، ونشأت هذه النظرية من فكرة الاستعمال اللغوي؛ لتصبح أهم نظرية في التداولية، ومهمة الاستعمال "ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين أيضا في الوقت نفسه"[6]، ذلك أن المتكلم ينجز عملا بمجرد النطق، وقد قسم "أوستن" الجمل إلى: جمل خبرية، وجمل إنشائية، في بادئ الأمر، ثم ركز على أفعال الكلام. ثم جاء تلميذه "سيرل" وأضاف على نموذج أستاذه وطور فيه وقد "احتل الصدارة بين أتباع أوستين ومؤيديه، إضافة إلى هذا فقد أعاد النّظر لنظرية أستاذه كما قام بتطويرها"[7].

أ–التوجيهيات:

تعد الطلبيات مركزا أساسيا في نظرية أفعال الكلام، حيث تعتمد على مبدأ التوجيه فهي "محاولة جعل المستمع يتصرف بطريقة تجعل من تصرفه متلائما مع المحتوى الخبري للتوجيه"[8]، فتوجيه السامع يكون من خلال "محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات world-to-words وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإرادة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوي فيها هو دائما فعل السامع شيئا في المستقبل"[9]، وقد ورد هذا النوع في كثير من المواضع في كتاب "ابن باديس" في أنماط مختلفة منها:

–الاستفهام: ورد الاستفهام في كتاب الإمام في عدة مواضع ومن ذلك نجد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هو الطهور ماؤه، الحل ميتته") رواه البخاري وغيره[10]، لقد جاء الطلب هنا على منوال السؤال، ويعد الاستفهام من الأساليب الإنشائية التي تشكل بنية الخطاب إذ "يمكن من خلاله معرفة الموقف ضمنا أو علنا بقرائن السياق، التي تثير المتلقي ولاسيما أن الاستفهام يرتبط بعامل القصدية، وهذه القصدية تكمن وراءها ردود أفعال منتظرة"[11]، ونلاحظ من خلال بنية الاستفهام أن الصحابي الجليل كان حريصا على أمر دينه، فجاء سؤاله سؤال الحريص عما ينفعه في دينه ودنياه، وهذا الموقف الذي يقع فيه من سافر وركب البحر، فسأل رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم من أجل أن يوضح له المسألة ويفتيه في أمره، فجاءه الجواب مختصرا موجزا فقال عليه الصلاة والسلام هو الطهور ماؤه، الحل ميتته، وتتجلى فاعلية الاستفهام من خلال الاستعمال اللغوي والقولي، ويتحول القول هنا إلى فعل من خلال التزام الصحابي وجميع متلقي الخطاب النبوي.

–النهي: جاء النهي في مواطن كثيرة من كتاب الإمام، ومن ذلك ما يلي:

قال تعالى: (وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) [سورة الإسراء، الآية: 110][12]، ورد في الآية الكريمة نهي عن المجاهرة بالصلاة، والصلاة هنا تحتمل معنى الدعاء والعبادة "وعلى الاحتمالين فقد جهر النبي –صلى الله عليه وسلم– بذكر الرحمان، فقال فريق من المشركين: ما الرحمان؟ وقالوا: إن محمدا يدعو إلهين، وقام فريق منهم يسب القرآن ومن جاء به، أو يسب الرحمان ظنا أنه رب آخر غير الله تعالى وغير آلهتهم، فأمر الله رسوله أن لا يجهر بدعائه أو لا يجهر بقراءة صلاته في الصلاة الجهرية"[13]، فجاء النهي في صيغة الطلب والإلزام، فالله جل ثناؤه ينهى نبيه عن المجاهرة بالصلاة، ويحمل النهي قوة إنجازية حيث ينجم عنه حدوث عمل بعد التلفظ بالقول. ثم نهى ربنا جل ثناؤه عن المخافتة في الصلاة وإنما "المقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاءه سرا أو صلاته كلها سرا فلا يبلغ أسماع المتهيئين للاهتداء به، لأن المقصود من النهي عن الجهر تجنب جهر يتوهم منه الكفار تهكما أو تطاولا كما قلنا"[14]، فالنهي هنا جاء من أجل مقصود إنجازي وهو إلزام بالفعل، "والنهي الحقيقي: لا بلاغة فيه، وإنما قصده مجرد النهي والكف والمنع"[15]، والمتمثل في النهي عن هذا العمل الذي يكون فيه توهم للكفار لكيلا يسبون الله ونبيه والقرآن الكريم.

–الأمر: ورد الأمر في مواضع منها:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) [سورة المائدة، الآية: 6][16]، جاء في الآية الكريمة أسلوب شرط بـ "إذا" والشرط "أسلوب لغوي يقوم على جزأين، يتسبب الجزء الأول وهو جملة الشرط في وجود الثاني وهو الجزاء أو الجواب، فأسلوب الشرط يتكون من ثلاثة أركان وهي: أداة الشرط، جملة الشرط، وجملة جواب الشرط أو جزاءه"[17]، فجملة الشرط قمتم إلى الصلاة وجملة جواب الشرط اغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى آخر الآية وربط الجواب بالفاء "ومعنى "إذا قمتم إلى الصلاة" إذا عزمتم على الصلاة، لأن القيام يطلق في كلام العرب بمعنى الشروع"[18]، فقرن الوضوء بالقيام إلى الصلاة، فالقوة الإنجازية في هذا الأمر تتمثل في وقوع فعل بعد الأمر وهو الوضوء عند القيام للصلاة، فالقول هنا لم يصف العالم وإنما أحدث تغييرا من خلال القيام بالعمل والمتمثل في وضوء من أراد القيام للصلاة، وهذا العمل ما يسميه "أوستين" بالفعل المتضمن في القول.

ب–الالتزاميات:

يحيل مفهوم الالتزام في هذا النوع على قيام المتكلم بعمل ما ويختلف هذا النوع عن سابقه في أن المرجع في الالتزاميات هو المتكلم، أما في التوجيهيات فهو المخاطب، كما أن الالتزاميات لا يحاول المتكلم فيها أن يؤثر في السامع، وفي التوجيهيات يحاول التأثير فيه[19]، وقد ورد هذا النوع في كتاب الإمام ومن ذلك:

عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنه(أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين) رواه البخاري[20]، جاء في الحديث الشريف وعيد شديد في حق من يترك الجمعات، لما في ذلك من تفريط في أمر الله، ونلاحظ من خلال الحديث الشديد أن الأقوال هنا ليست توصيفا للعالم والأمر فيها لا يحتمل الصدق أو الكذب "وهي كلها أقوال وأفعال يقترن فيها القول بالفعل، بحيث ليست هذه الأقوال مجرد رغبة في إقران الأفعال بالكلام، بل هي أيضا مجهود لمجابهة التطابق المفترض بينهما، ولموجب ذلك تحددت مهمة اللغة في أداء المعنى الطقوسي بإنجاز أفعال كلامية"[21]، لذا نجد أن القول مقترن بالفعل والمتمثل في ختم الله على قلوب هؤلاء، وهنا تتضح القوة الإنجازية للفعل الكلامي من خلال اقترانه بالفعل وتحوله من مجرد قول إلى فعل يتغير معه العالم الخارجي.

ج–الإخباريات:

وهي ما يعبر به المتكلم عن واقعة ما في عالمه ويكون ذلك بأن "نقدم الخبر بوصفه تمثيلا لحالة موجودة في العالم"[22]، والإخباريات يكون "الغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية proposition يعبر بها عن هذه الواقعة، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق والكذب"[23]، وقد ورد هذا الفعل الإنجازي فيما يلي:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا، فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: إن عيني تنامان ولا ينام قلبي) رواه الشيخان[24]، تصف لنا أم المؤمنين "عائشة" رضي الله عنها صلاة النبيء صلى الله عليه وسلم في رمضان، فقد كان لا يزيد عن إحدى عشرة ركعة، ووصفت حسن صلاته وطول قيامه وعدد ركعاته، ثم سألته كيف له أن ينام قبل أن يوتر، فأجابها عليه الصلاة والسلام بأن عينه تنام ولا ينام قلبه، وهذا من خصائص النبيء صلى الله عليه وسلم، لما شرفه الله به، فإخبار عائشة رضي الله عنها عن النبيء صلى الله عليه وسلم إخبار عما شاهدته، وهذا الإخبار

يحتمل الصدق والكذب، غير أن الخبر صادق لعدة اعتبارات، فعائشة تتحدث عن النبيء وهو زوجها، ومن البديهي أن تلاحظ ما يقوم به فلا يختلط عليها الأمر؛ إذ يبيت عندها ويتكرر هذا الفعل معها، كما أن عائشة رضي الله عنها أورع إلى الله وأتقى له من تتحدث بحديث عن أفضل الخلق وهي غير متأكدة به، ومن جهة السند فهو صحيح إذا اشترط البخاري في كتابه صحة الحديث، وهذا معلوم عند أئمة الحديث.

يبرز الغرض الإنجازي من وصف عائشة رضي الله عنها لفعل النبيء صلى الله عليه وسلم في نقلها للواقع كما شاهدته، وعايشته، وإنما كان الغرض من ذلك هو النصح والإرشاد لما كان يفعله صلى الله عليه وسلم، وتعليما لأمته، وبيانا للحق، وعدم كتمه.

د–التعبيريات:

وهذا النوع من أفعال الكلام يتأتى من خلال "التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات، وكل ما هو مطلوب الإخلاص في التعبير عن القضية"[25]، وقد جاء هذا النمط فيما ذكره الإمام رحمه الله وقدس سره:

عن ربيعة بن مالك الأسلمي رضي الله عنه قال: (قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: سل؟ فقلت أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ فقلت: هو ذاك، فقال: أعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم[26]،بني الخطاب النبوي في الحديث الشريف على التساؤل، إذ افتتح النبي صلى الله عليه وسلم الخطاب بسؤال الصحابي "ربيعة بن مالك الأسلمي" ما يريده بصيغة الاستفهام والطلب بفعل الأمر "سل" فكان جواب الصحابي هو طلب مرافقة الرسول الكريم في الجنة، وهذا الطلب لم يكن توصيفا لشيء معين، كما لم يكن إبرازا لأمر يقع في العالم الخارجي، وإنما كان تعبيرا عما يختلج في نفس الصحابي الجليل، ورجاؤه مرافقة رسول رب العالمين، وأي رجاء أفضل وأعظم من هذا الرجاء، لذلك نلاحظ أن الغرض الإنجازي هنا يقع من خلال التعبير عن الموقف النفسي للصحابي الجليل رضي الله عنه، الذي يتسم بالإخلاص في تعبيره، إذ الغاية الكبرى للمؤمن هي مرافقة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم في جنة الخلد.

وتتجسد القوة الإنجازية في هذا الملفوظ من خلال التحول الواقع بعد القول؛ إذ نلاحظ أن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بطلب يحث فيه الصحابي بكثرة السجود، وهذا ما سيجعل القول يتحول إلى فعل والتزام الصحابي بالعمل من أجل الظفر بطلبه.

2-الإحالة:

تعد الإحالة أحد أهم العناصر اللغوية التي تحقق للنص تماسكه وتلاحمه؛ من خلال "الروابط الداخلية التي تربط بين وحدات النص وتحقق تماسكه وانسجامه، والروابط التي تربطه بعالمه الخارجي"[27]، وعناصر الإحالة"لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء الخطاب"[28]، فليس لها دلالة في ذاتها، وتفهم من خلال التوظيف السياقي والاستعمالي لها. وتنقسم الإحالة إلى قسمين هما:

أ-إحالة داخلية:

وتكون هذه الإحالة داخل النص فهي "إحالة على العناصر اللغوية الواردة في الملفوظ، سابقة كانت أو لاحقة، فهي إحالة نصية"[29] وتنقسم هذه الإحالة هي الأخرى إلى قسمين: إحالة سابقة وهي التي تعود على عنصر لغوي سبق التلفظ به، وإحالة لاحقة وهي التي تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها[30]، وقد وردت الإحالة في مواطن كثيرة جدا في كتاب الإمام ومن ذلك:

ما ورد في خطبة الوداع (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)[31]، نلاحظ من خلال الحديث أن النبيء صلى الله عليه وسلم بين تحريم دماء المسلمين وأموالهم فيما بينهم، ومثل لذلك بحرف التشبيه الكاف، فجعل حرمة الدماء والأموال مثل حرمة اليوم وهو يوم عرفة، وحرمة الشهر وهو شهر ذي الحجة، وحرمة البلد وهو بلد الله الحرام، وجاء العنصر الإشاري "هذا" مكررا ثلاث مرات، في كل مرة يحيل على مرجع يختلف عن الآخر، فأحال في المرة الأولى على اليوم، وأحال في الثانية على الشهر، وأحال في الثالثة على البلد، كما أحال العنصران الأول والثاني على الزمن وأحال الثالث على المكان، غير إن الإحالات الثلاث تتفق جميعها في كون الإحالة جاءت إحالة قبلية، فالعنصر الإشاري "هذا" أحال على "اليوم" و"الشهر" و"البلد" إحالة قبلية، إذ وقع المحال عليه قبل عنصر الإحالة، فالإحالة لا تفهم إلا إذا خرجنا بها من الخطية النصية إلى المقام الخطابي، فمعلوم أي يوم وأي شهر وأي مكان الذي جاء فيه الخطاب، ولولا ذلك لما استطعنا أن نعي دلالة الإحالة، ولا يمكن لنا فهم وجه التشبيه في قوله: كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ب–وإحالة خارجية:

وهذا النوع من الإحالة يقوم على "إحالة عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي"[32]، ومما ورد في هذا النوع من الإحالة ما ذكره الإمام في كتابه عن ابن عمر رضي الله عنهقال: سمعت رسول الله صلى الله يقول: (إذا رأيتموه فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فاقدروا له) رواه البخاري ومسلم[33]، نلاحظ من خلال الملفوظ أن هناك إحالة في قوله صلى الله عليه وسلم: "رأيتموه" وقد تكررت اللفظة مرتين، فالهاء هنا تعود على شيء لم يذكر في الملفوظ، فالعنصر المحيل هو الضمير "الهاء" العائد على شيء في العالم الخارجي، إذ لم يتم ذكره داخل بنية الخطاب، ولكنه معلوم من خلال السياق، إذ قصد الهلال، ذلك أن الصيام يبدأ برؤيته في آخر ليلة من شعبان، وينتهي برؤيته في آخر ليلة من رمضان.

3–الحجاج:

يعد الحجاج مبحثا تتجاذبه كثير من العلوم، مثل: التداولية، والخطابة، والفلسفة، والبلاغة "وهذا ما جعل مفهوم الحجاج يطعم بمفاهيم وظائف وتنظيرات مختلفة ما زالت في تجديد مستمر"[34]، وغايته الإقناع وحمل المتلقي على القيام بأمر ما، فهو "بحث من أجل ترجيح خيار من خيارات قائمة وممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما"[35]، هذا الدفع سيكون من خلال التأثير في المتلقي بواسطة الحجج التي يسوقها المتكلم.

أ–الروابط الحجاجية

– الرابط "حتى":

يعد الرابط الحجاجي "حتى" من الروابط التساوقية، "وللمعطوف بـ "حتى" عند النحاة العرب شرطان:

1–أن يكون بعض ما قبلها.

2–أن يكون غاية لما قبلها، في زياد أو نقصان والزيادة تشمل القوة والتعظيم، والنقص يشمل الضعف والتحقير."[36]، ومما ورد في كتاب الإمام "ابن باديس" قوله: عن أبي هريرة رضي الله عنهقال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ) رواه الشيخان[37]، لقد جاء الرابط الحجاجي "حتى" من أجل تقوية إيقان المتقبل بالنتيجة داخل الملفوظ، بل إنّ العامل قبل ذلك يرسم له صورة المسلك الذي ينبغي عليه أن يقطعه للوصول إلى النتيجة[38]، ونلاحظ أن ما يأتي بعد

حتى يندرج ضمن الخاص، وما قبلها يندرج ضمن العام، فالعامل الحجاجي "حتى" يخصص العام، ويجعله في العلاقة الجزء بالكل، فالصلاة لا تقبل من غير وضوء ولذلك تندرج الطهارة ضمن الخاص، والصلاة ضمن العام.

ويعمل الرابط الحجاجي "حتى" على العطف، وشرطه عند "ابن يعيش" أن يكون ما بعده جنس ما قبله وأن يكون فيه تحقير أو تعظيم[39]، وجاء ما بعد الرابط لتعظيم الفعل، فالصلاة أمرها عظيم والطهارة شرط للصلاة، فيكون تعظيم الطهارة من تعظيم الصلاة، وعلى هذا يمكن اعتبار أن ما قبل الرابط "حتى" حجة أولى، وما يقع بعدها حجة ثانية، وتكتسب الحجة الثانية قوة حجاجية أكبر من الأولى، لاشتمالها على الحكم القيمي[40]، وعليه يمكن أن نمثل لبنية الخطاب على السلم الحجاجي كالآتي:

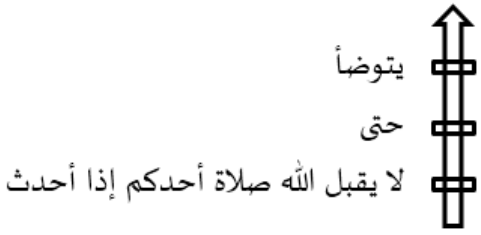

الشكل 1: يبين بينة الرابط الحجاجي "حتى" داخل السلم الحجاجي

–الرابط "لكن" يعد هذا الرابط رابطا حجاجيا تعارضيا لكون "التلفظ بأقوال من نمط "**أ** لكن **ب**" يستلزم أمرين اثنين:

- أن المتكلم يقدم "**أ**" و "**ب**" باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة "**ن**" والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها، أي "لا – **ن**"

- أن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى باعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته"[41]، وقد جاء هذا الرابط في الملفوظ التالي: عن صفوان بن عسال قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا سفرا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم) رواه أحمد والنسائي والترمذي[42]، استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرابط "لكن" ونلاحظ أن هناك تعارضا حجاجيا بين ما يسبق الرابط وما يأتي بعده، ذلك أن الجزء الأول من الخطاب: " أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة" يتضمن نتيجة من قبيل أن نزع الخف يكون وقت حدوث

الجنابة، والجزء الثاني من اخطاب يخدم نتيجة مضادة للنتيجة الأولى "لا–ن"؛ أي تخدم نتيجة من قبيل: "لا ينزع الخف من الغائط والبول والنوم" "وبما أن الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى، فإنها ستوجه القول بمجمله نحو النتيجة "لا– ن"[43]، وتمثل لبنية هذا الرابط على النحو التالي:

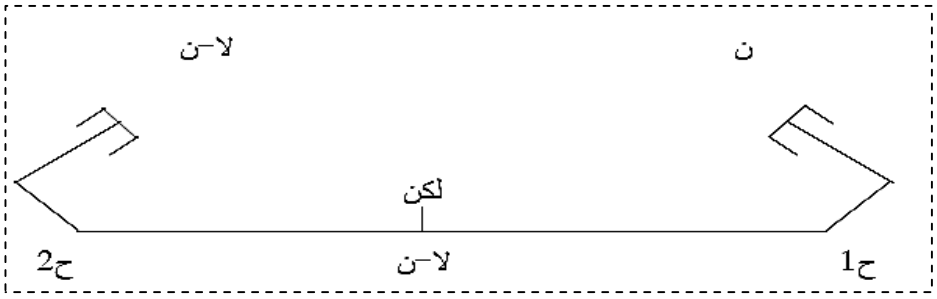

الشكل 2: يبين بنية الرابط الحجاجي "لكن" داخل الخطاب

فالحجة الأولى تخدم النتيجة (ن) والحجة الثانية تخدم نتيجة مضادة (لا – ن) وذلك من خلال الرابط لكن.

–الرابط الواو:

يعد الواو حرف عطف وهو كثير الاستعمال في اللغة، واستعمالاته "تكشف عن عبقرية أخرى في الاشتغال لإنجاز السلم الحجاجي خارج إطار النفي والإثبات أو الإضراب أو التعليل أو انتهاء الغاية كما هو الشأن مع حتى مثلا"[44]، وقد ورد هذا الرابط في مواضع كثيرة جدا من الكتاب، ومن ذلك ما ذكره ابن باديس: عن ابن عمر رضي الله عنهقال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) رواه الشيخان[45]، لقد جاء الخطاب متساوقا من خلال تضافر بنيته الحجاجية بفضل الرابط الحجاجي "الواو"؛ حيث يعمل الرابط الحجاجي "الواو" على ربط وترتيب الحجج ووصلها ببعضها البعض، "ويكمن دور الروابط الحجاجية واستثمار دلالاتها في ترتيب الحجج، ونسجها في خطاب واحد متكامل، إذ تفضل مواضع الحجج، بل وتقوي كل حجة منها الحجة الأخرى"[46]، ونلاحظ من خلال الملفوظ أن الحجج جاءت مترابطة ومتسقة ، تقوي كل حجة الأخرى لتخدم كلها نتيجة واحدة وهي إقامة الدين في الأرض، وعبادة رب العالمين وحده لا شريك له.

ب–العوامل الحجاجية:

–العامل "لا ... إلا"

يأتي هذا العامل كأهم أدوات الاستثناء، يقوم على الحصر بسبب النفي الذي يسبق أداة الاستثناء؛ حيث "إن للعامل الحجاجي (النفي والاستثناء) علاقة وثيقة بالأحوال التي يكون عليها المخاطب، فالجو العام للنفي وما يلفه من ظرف نفسي أو اجتماعي له الأثر الكبير في استعمال هذا العامل"[47]، وورد هذا العامل في مواضع متعددة ومنها ما ورد في قول الإمام: عن ابن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم المؤذن قولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا إليّ الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) رواه مسلم[48]، تم توظيف العامل الحجاجي "لا...إلا" لحصر الإمكانات المتوفرة وقصرها، فالوسيلة منزلة في الجنة لا تكون إلا لعبد واحد من عباد الله، وتم حصر الوسيلة بأنها مرتبة ينالها عبد واحد، ويمكن أن نمثل لذلك على النحو التالي:

الشكل 3: يبين بنية العامل الحجاجي "لا...إلا" داخل الخطاب

فعند حذف النفي وأداة الاستثناء تصبح بنية الخطاب كالآتي:

فإنها منزلة في الجنة تنبغي لعبد واحد من عباد الله (02)، وعند مقارنة الملفوظين (01)، (02) نجد أن المعنى لم يتغير ولم يحدث "أي اختلاف بين المثالين بخصوص القيمة الإخبارية أو المحتوى الإعلامي، ولكن الذي تأثر بهذا التعديل هو القيمة الحجاجية للقول، أي الإمكانات الحجاجية التي يتيحها"[49]، لكن وجود العامل الحجاجي "لا...إلا" حصر الإمكانات العديدة في القول، ووجه المتلقي نحو نتيجة واحدة.

–العامل إنما:

يعد العامل "إنما" موجها مقيدا للإمكانات، حيث "ينهض العامل الحجاجي "إنما" في النص مظهرا لنا معنى ثابتا، وذلك بتقييده وجعله مؤكدا به، مما يكسب الخطاب نوعًا من ترتيب الحجة وتقويتها"[50]،ومما ورد في كتاب الإمام نجد:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)﴾ [سورة التوبة، الآية: 60][51]، استعمل القرآن الكريم أسلوبا بلاغيا في تحديد الصدقات وتوزيعها على مستحقيها؛ حتى لا تذهب إلى غيرهم، وجاء هذا التحديد من خلال بنية الخطاب باستعمال أسلوب القصر بالأداة "إنما"؛ وهذا "قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها، لا يتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم"[52]، فالقصر جاء من أجل تحديد الإمكانات الممكنة التي يتيحها الخطاب، وتوجيه ذهن المتلقي نحو إمكانية واحدة من مجموع هذه الإمكانات.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إني امرأة أشد شعر رأسي، أفأنقضه لغسل الجنابة والحيضة؟ فقال: لا، إنما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حيثيات) رواه مسلم[53]، جاء العامل الحجاجي بعد نفي بـ "لا" وقد سبقهما سؤال من الصحابية عن الغسل ونفض الشعر، فكان الجواب بعدم فعل ذلك، ثم كان ولابد من بيان الوجه المناسب والصحيح، فكان جوابه صلى الله عليه وسلم بأن تحث على رأسها ثلاث حيثيات، فعمل العامل على توضيح مراد واحد من مجموعة من الإمكانات الممكنة، ولذلك يستعمل الرابط "إنما" لتقييده البنية الحجاجية، والتأكيد به، من خلال الفعل الوظيفي المتمثل في الحصر والقصر.[54]

-العامل "لو"

يأتي هذا الرابط في موضعين اثنين فقط من كتاب الإمام رحمه الله ومن ذلك ما أخبر به عن أبي هريرة رضي الله عنهقال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء والصبح، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا) رواه الشيخان[55]، توفر في الحديث الشريف أسلوب بلاغي وهو أسلوب الشرط بـ "لو" غير أن هذا الأسلوب لا يتحقق فيه الشرط؛ ذلك لأن ""لو" حرف يفيد امتناع الجواب بسبب امتناع الشرط، والمراد بأن الجواب لم يحدث الشرط لأن الشرط لم يتحقق"[56]، ونجد أن هذا الأسلوب يقوم على تقييد الإمكانات وحصرها من خلال ارتباط الجزء الأول بالثاني فهو سبب لحصوله، فلو علم المنافقون ما في صلاة العشاء والصبح لجاؤوا للصلاة وحضروا الجماعة، وهذا ممتنع

لامتناع تحقق معرفتهم بفضلهما، فَقَيَّدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيء المنافقين إلى صلاة العشاء والصبح بمعرفتهما لفضلهما وما فيهما من خير، ولما امتنع ذلك –أي معرفتهم بذلك– امتنع تحقق جواب الشرط –أي مجيئهم للصلاة– ونمثل لذلك على النحو التالي:

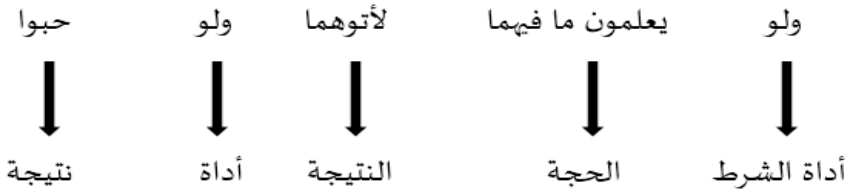

الشكل 4: يبين بنية العامل الحجاجي "لو" داخل الخطاب

نلاحظ من خلال الترسيمة أن الأداة "لو" تكررت مرتين، ففي الملفوظ الأول "لو يعلمون ما فيهما لأتوهما" جاءت لتقييد الإمكانات وتقييد النتيجة بحصول الحجة، فلو علم هؤلاء ما فيهما من فضل لأتوهما، ثم لما كان الإتيان والمجيء له عدة صور، منها الركوب والمشيء، ومنها الإسراع والتأني، وغير ذلك فإنه قيد لونا واحدا من هذه الصور، واختار له صورة واحدة وهي الحبو، وذلك لبيان مكانة هذه الصلاة، وفضلها.

خاتمة: توصلت هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من الاستنتاجات أهمها:

1–أورد الإمام مجموعة من آيات وأحاديث الأحكام لبيان مواضع الاستدلال في الفقه، وبنيت هذه الأحكام وفق سلمية تداولية، ذلك أن المسائل التي ذكرها لا يمكن فهمها إلا من خلال قراءة الخطاب الأصولي وفق المقام الذي أنشئ فيه، فالقضايا التي جاءت تحمل مفهوم الأمر والنهي والاستفهام مثلا إنما جاءت وهي تحاول إحداث تغيير في العالم من خلال البنية اللغوية، كما أن الالتزامات تكتسب قوتها الإنجازية بفضل ما تحدثه من تغيير في بنية العالم والواقع بعد التلفظ القولي لهذه الأفعال.

2–أظهرت الإحالة الدور الأسمى في فهم المرجع الذي يحيل عليه العنصر الإحالي، وإن عدم معرفة المرجع يحدث خللا من الناحية الدلالية، ذلك أن عدم الوصول إلى أجزاء الخطاب وعدم ارتباطه في ذهن المتلقي يترك شرخا في الدلالة الكلية لهذا الخطاب، لذلك أتاحت معرفة المرجع اكتمالا من الناحية التركيبية والدلالية.

3-أسهمت الروابط والعوامل الحجاجية في بناء خطاب ناجح من الناحية التداولية والحجاجية، فقد ساعد وجودها على توجيه ذهن المتلقي نحو نتائج محددة، ورفعت في درجة مقبوليته لهذه المقولات الحجاجية، فالخطاب الأصولي خطاب ثري من الناحية التداولية، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمساءلة الحجاجية، ذلك أن الخطاب الأصولي وهو يسعى إلى وضع القاعدة الأصولية يضع في الحسبان مسألة حجية ومقبولية هذه القاعدة.

هوامش:

[1] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية(لبنان)، ط01، 1998م، ج01، ص 303.

[2] ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله على الكبير وآخران، دار المعرف(مصر)، ط01، (د، ت)، مج02، ج17، ص 1455.

[3] باتريك شارودو، ودومينيك منغنو معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، مر: صلاح الدين الشريف، دار سيناترا(تونس)، (د، ط)، 2008م، ص442.

[4] أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية، عالم الكتب الحديث(بيروت)، ط01، 2015م، ص08.

[5] فليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غولفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار(سوريا)، ط01، 2007م، ص19.

[6] خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة للنشر والتوزيع(الجزائر)، ط01، 2009م، ص89.

[7] آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيفالدين دغفوس ومحمد الشّيباني، دار الطليعة(بيروت)،ط01، 2002م، ص33.

[8] جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، تر: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف(الجزائر)، ط01، 2006م، ص218.

[9] حمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية (د، م)، (د، ط)، 2002م، ص79.

[10] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، تع، وتح: محمد الحسن فضلاء، دار البعث (الجزائر)، ط01، 1985م، ص15.

[11] مثنى كاظم صادق: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، دار ومكتبة عدنان (تونس)، ط01، 2015م، ص139.

[12] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص49.

[13] محمد بن الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر (تونس)، (د ط)، 1984م، ج15، ص237، 238.

[14] المرجع نفسه، ج15، ص238.

[15] أيمن أمين عبد الغني: الكافي في البلاغة البيان والبديع والمعاني، تق: رشدي طعيمة وآخران، دار التوفيقية للتراث (مصر)، (د، ط)، 2011م، ص336.

[16] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص17.

[17] جمله داود عبد الجليل عياش: أسلوب الشرط والقسم بين لغة الشعر الجاهلي ولغة الحديث الشريف، (رسالة ماجستير)، إشراف: عودة خليل أبو عودة، جامعة الشرق الأوسط، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، (الأردن)، 2010م، ص66.

[18] الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج06، ص128.

[19] محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 79.

[20] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص58.

[21] الحسين أخدوش: نظرية أفعال اللغة لدى الفيلسوف أوستين أسسها وحدودها الفلسفية، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث (المملكة المغربية)، (د، ط)، 2016م، ص 17.

[22] جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، ص 117.

[23] محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص78.

[24] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص62.

[25] محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص80.

[26] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص61.

[27] محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب(مصر)، ط01، 2013م، ص84.

[28] الأزهر زناد: نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي(المغرب)، ط01، 1993م، ص118.

[29] المرجع نفسه، ص118.

[30] المرجع نفسه، ص119.

[31] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص85.

[32] المرجع نفسه، ص119.

[33] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص72.

[34] محمد ولد سالم الأمين: حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر (ليبيا)، ط01، 2004م، ص11.

[35] خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص105.

[36] أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع(المغرب)، ط01، 2006م، ص72.

[37] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه، ص17

[38] عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، دار نهى(تونس)، ط01، 2011م، ص134.

[39] ابن يعيش: شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية(مصر)، (د، ط)، (د، ت)، ج08 ص96.

[40] عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص135.

[41] أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص: 58.

[42] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص20.

[43] أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص59.

[44] عز الدين ناجح: العوامل الحجاجية، ص152.

[45] عبد الحميد ابن باديس: أصول الفقه، ص46.

[46] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة(لبنان)، ط01، (د، ت)، ص 472.

[47] مثنى كاظم صادق: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، ص110.

[48] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص39.

[49] مجموعة مؤلفين: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط01، 2006م، ص64.

[50] مثنى كاظم صادق: أسلوبية الحجاج، ص113.

[51] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص66.

[52] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح وتع ودر: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، مكتبة العبيكان (المملكة العربية السعودية)، ط01، 1998م، ج03، ص59.

[53] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص22.

[54] مثنى كاظم صادق: أسلوبية الحجاج، ص73.

[55] عبد الحميد بن باديس: أصول الفقه آيات وأحاديث الأحكام، ص55.

[56] أيمن أمين عبد الغني: الكافي في البلاغة، ص355.